تعريف بالكتاب

قال امرسون صديق ثورو وأعرف الناس به وأكثرهم برا به وعطفا عليه : « ان قليلا من الناس من استطاع أن يعيش مثله قانعا راضيا بالاستغناء عما استغنى عنه وهو كثير ، ولم يتهيأ بالتعليم لصناعة من الصناعات ، ولم يتزوج قط ، ولم يسكن فى صحبة أحد ، ولم يذهب قط الى كنيسة ، ولم يعط صوته قط فى انتخاب ، وقد أضرب عن سداد الضريبة ، وأضرب عن أكل اللحوم ، ولم يشرب الخمر ولا عرف التدخين ، وكان من مراقبى الطبيعة الذين يتابعون أطوار الحيوان ، ولكنه لم يستخدم قط فخا أو رامية للصيد ، وهو الذى اختار لنفسه أن يعيش راهبا يتنسك للفكر وللطبيعة » .

وهذا هو الوصف الجامع الشامل الذى يغنى فى فهم سيرة هذا الحكيم المتأبه مالا تغنيه التراجم المطولة ، وهو الذى يفسر لنا معانى كل نزعة من نزعات ثورو كلما رجعنا الى المطولات ولم نخرج من أكثرها بما يزيد على قول الكاتب المؤرخ « ان ثورو كان رسول الدعوة الى الطبيعة فى القرن التاسع عشر .. » .

ولقد كان حقا رسولا من أكبر رسل الدعوة الى الحياة بين أحضان الطبيعة فى القرن التاسع عشر ، ولكن حبه للطبيعة لم يكن قط كافيا لتفسير كل غرائبه وأطواره وبدواته ، وهى كثيرة فى كل يوم وكثيرة فى مدى حياته التى لم تجاوز الأربعين .

انما كان مدار فلسفته كلها حب البساطة حيث كانت ، تحت ظلال الغاب أو بين العمائر وناطحات السحاب .

وكانت شواغل الحضارة المعقدة هى التى تلجئه الى حياة الغاب أو حياة الانفراد .

ولم يعنه أن يبشر الناس بدعوة الهجرة الى الغاب ، أو بدعوة الرهبانية والعزلة عن الناس ، فقد كان يكفيه منهم أن يتعودوا بساطة العيش ، والاستغناء عن مطالب الفضول ، والاكتفاء بالجوهرى الضرورى من شئون الحياة .

وقد فكر فى الزواج وخطب الفتاة التى أعجبته ولم يعجبها ، فلم يعد بعد ذلك الى التفكير فى الزواج بغيرها .

ولم يكن احتجاجه على الضريبة انكارا لمبدأ الحكم وقيام الدولة ، وذهابا مع مذهب الفوضى الذى شاع قبل زمانه بقليل ، ولكنه أبى دفع الضريبة لحكومة تبيح الرق عملا وتحرمه بالقول رياء ونفاقا ، وأبى على الحكومات كافة أن تفسد على رعاياها بسائط الحياة وحرية العيش البسيط الذى يتسنى لهم بمقدار احترام الحاكم لحريتهم واجتنابه التعرض لهم فى شئون معيشتهم ... وكان يسكن فريدا فى الغابة أو فى المدينة ، ولكنه يخرج كل يوم للقاء جيرانه « البسطاء » والتحدث اليهم فيما يعنيهم من مسائل العيش ، وفيما ينبغى أن يعنيهم من مسائل الروح والضمير ، وكان يحرص على الزمن ولكنه كان يكره العجلة فى غير طائل ، فاذا كان عنده ما يعمله عمل ووجد فى الزمن الكفاية لكل عمل لازم ، وكل شاغل مفيد ، وكل فائدة « جوهرية » لمن يدين بعقيدة الحياة الوادعة والعيش البسيط ، وقد بنى كوخه فى الغابة فى غير قلق ولا عجلة وفرغ من بنائه فى أوانه ولم يكلفه أكثر من ثمانية وعشرين دولارا كان يحتاج الى أكثر منها لأجرة مسكنه أيام التلمذة لسنة واحدة ، وقضى فى هذا المسكن شهورا لا ينفق فى الشهر الواحد منها ما يزيد على الدولار الواحد بغير سنتيمات قلائل ، ولم يقلقه فى يوم من الأيام أمر العجلة لادراك موعد ، أو للفراغ من عمل ،

أو لحساب الوقت بالساعات واللحظات ... كلا ولا بالشهور والسنين ، وكل ما كان يعتمد عليه من ضوابط الوقت فى مسكنه وفى جواره صفارة القطار الذى يمر فى موعده على مسمع منه ، فيعرف الوقت بالصفارة ولا يعرفه بدقات الساعة والدقيقة ، ولا بالتقويم المعلق على جدار .

ولم يكن هذا الرجل ضيق الفكر محدود النظر كما يكون أصحاب البدوات وغرائب الأطوار فى معظم الأحوال ، لأنه كان يقرأ الكتب بلغته الانجليزية ، وباللغات الألمانية والفرنسية والايطالية واليونانية واللاتينية ، وكان يقرأ كل ما وجده فى مكتبة صديقه الفيلسوف امرسون صديقه وأستاذه فى بعض توجيهاته وآرائه ، وفيها من الكتب القيمة ما يرضى مطالب ذلك الفيلسوف ، وقد دل أسلوبه فى نثر اللغة الانجليزية على التعمق فى فهم ما يطلع عليه ، وظهرت آثار قراءته اليونانية فى أسلوب القصة البليغ الذى امتازت به تلك اللغة وامتاز به على مثالها أسلوبه الحكيم .

فلم يكن ضيق الفكر علته فيما اشتهر به من غرائب الأطوار ، ولكن فرط النقمة على مساوىء الحياة العصرية قد كان من القوة بحيث يغلبه على طول التأمل وطول الموازنة بين ضرورات الزمن وبواعث الفترة التى تؤثر البساطة على كل حياة متشعبة متراكبة يسيغها التفكير أو لا يفكر فيها ضعاف الأفكار وصغار الأحلام . وكانت له عزيمة صادقة تعينه على رفض ما ينكره ويستغنى عنه مما لا حاجة اليه ، ولو كان أضعف من ذلك عزما لجاز أن يتردد ويطيل التردد حتى يراجع نفسه ويوفق بينه وبين ضرورات الزمن فى عهد الصناعة ونظام الحكم الحديث ..

على أننا نذكر ضرورات الزمن ، ولا ننسى أن الزمن الذى عاش فيه « ثورو » لم يكن يجهل الدعوة الى أحضان الطبيعة قبل أن

يعانها « ثورو » من محرابه بين الغاب والبحيرة ، ولولا أن الشعور بوطأة الحياة السياسية ووطأة الحيـــاة الصناعية من بعدها كان شعورا عاما مشتركا بين أبنـــاء عصره لما ترجم عنه ثورو ترجمته العملية بسلوكه فى معيشته وترجمته الأدبية بما أودعه دواوينـــه وكتبه ومقالاته وسائر مذكراته فى أوراقه الخاصـــة وعلى صفحات الصحف والمجلات .

وقبل عصره بنحو جيلين شعر الناس فى الغرب بمساوىء الحياة السياسية والاجتماعية فراح چان چاك روسو فى بلاده ينعى مساوىء الحضارة ويعود بالناس الى العقد الاجتماعى الذى كان يتوهم أنه أصل النظم السياســـية على سنة الطبيعة الأولى ، وبعد روسو بقليل ظهر مواطنه العـــالم الأديب برناردين دى سان بيير يبشر أبناء الغرب بمحاسن الطبيعـــة ويشيد ببســـاطة الفطرة الأولى فى قصصـــه وفى دراساته العلمية ، ولم تنته هذه الظاهرة بانتهاء القرن الثامن عشر ولا بانتهاء القرن التاسع عشر الذى عاش فيه مؤلف «والدن» أو الحياة فى الغاب ، ولكنها بقيت ولا تزال باقية الى اليوم فى العالمين القديم والجديد ، ولا يزال من دلائل بقائها أن يعاد طبع المؤلفات التى كتبها ثورو فى التبشير بدعوة الطبيعة عشرات المرات ، وأن تطبع من « والدن » طبعات للقراءة فى كل طبقة وبين كل جمهور : من العاكفين على القراءة الى قراء التسلية وتزجية الفراغ ، ومن هذه الطبعات ما يقع فى مجلدات ، ومنها ما يختصر فى مجلد واحد لا يزيد على بضع مئات أو عشرات من الصفحات ... وبين أيدينا احدى هذه الطبعات المختصرة ، وهى الطبعة السادسة فى خلال عشر سنوات ، وقد يعاد طبعها بهذا العدد — أو بأكثر منه — خلال السنوات المقبلة ، لمناسبة من مناسبات ذكراه ، أو بلا مناسبة من الذكرى غير الاستزادة من هذا التراث فى كل جيل .

وليست هذه الرغبة فى كتب « ثورو » رغبة فى التعلم واكتساب المعرفة العلمية عن النبات والحيوان ، فان معلومات « ثورو » لا تعتبر اليوم كلمة العلم الأخيرة فى هذه الدراسات ، ولا يقتدى بها فى تربية الحيوان ، ولا فى استنبات أنواع الأشجار أو الأعشاب ، وقد لاحظ ذلك العالم « أدوين واى تيل » حين قال فيما يلى من حوار :

« انه من أعاظم الطبيعيين ولكنه قد يرتكب هفوة بين الحين والحين ، فلم يوفق مرة واحدة فى التفريق بين الدج الناسك ودج الغاب ، وكان يبحث عن أوكار صقور المستنقعات فوق أعالى الأشجار وهى تقيم أعشاشها على الأرض ، وكان ثمة طائر هازج غامض ظل يستمع اليه ردحا طويلا فى حين كان يصغى جانبا من الوقت الى عانوق ماريلاند ، وفى حين آخر كان يستمع فى الواقع للطائر الغران ... الخ الخ » .

فالمقبلون على قراءة ثورو اليوم يجدون معلوماتهم عن الطبيعة فى مراجع أخرى غير مراجع « والدن » وما نحا نحوها من مؤلفاته فى هذا الباب ، ولكنهم يعلمون كما قال العالم الزميل — كروتش — مجيبا زميله : « ان ثورو لم يكن من همه أن يعرف شيئا عن الطبيعة ، بل كان همه أن يخالط الطبيعة ... وكان يريد أن يعرف كيف تعيش المخلوقات . فذلك عنده أهم بكثير من معرفة أسمائها » .

وقراؤه كذلك لا يرجعون اليه طلبا لمعارف العلم التى يجدونها على نحو أصح من ذلك فى أصغر الكتب المدرسية التى تزدان بحسن الطبع وحسن التصوير ، وانما يرجعون اليه شوقا منهم الى بساطة الحياة وشعورا منهم بوطأة المعيشة الحديثة فى تعقيداتها الاجتماعية والسياسية ، وفى تعقيداتها الأخلاقية والاعتقادية أكثر من ذلك ، وربما بدأوا قراءة الكتاب وفرغوا منه وهم على يقين أنهم لن يذهبوا كما ذهب مؤلفه الى الغاب ، ولن يستطيبوا المعيشة كما كان يستطيبها

ببضعة دولارات فى العام ، ولكنهم ينظرون اليه نظرتهم الى الرائد « المتخصص » فى كل رياضـــة من رياضات الضمائر أو رياضات الأبدان أو رياضات الأذواق .

انهم يعجبون بلاعب الكرة الذى ينقطع للبراعة فى لعبتها ما استطاع من أيام حياته الرياضية ، وقد يكون أشدهم اعجابا به أقلهم رغبة فى محاكاته والانقطاع لميادين اللعب كانقطاعه .

وتلك هى وظيفة الرائد « المتخصص » حيث كان وكيفما كان .

انه سبب لبقاء الرياضة المحبوبة والشعور بحاجة كل محب لها الى نصيب منها .

أما المنقطعون لها فقد يزيدون انتشارها بين العدد الأكبر من الناس ، ولكنهم لا يزيدون عدد « المتخصصين » لها زيادة تفوق نسبتهم المألوفة بين جمهرة المحبين للرياضة والمستفيدين منها .

وهكذا تكون رسالة « ثورو » وأمثاله من الداعين الى بساطة الحياة . فانهم يؤدون تلك الرسالة حق أدائها اذا أقنعوا الناس بالنفور من فضول العيش والاستغناء عما يرغبون فيه من سفسافه وحواشيه ولا حاجة اليه ، وانهم ليفلحون فى أداء تلك الرسالة ولو لم يتبعهم واحد من قرائهم الى ظلال الغاب .

عباس محمود العقاد